من نجوم الإسلام
(٣)

سعد ابن أبي وقاص

فارس القادسيّة

تأليف

عبد الله الطنطاوي

دار القلم
دمشق

الدّار الشّاميّة
بيروت

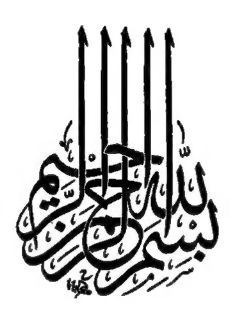
الطبعة الأولى
١٤١٥هـ - ١٩٩٤م

دار القلم
للطباعة والنشر والتوزيع دمشق - حلبوني - ص.ب : ٤٥٢٣ - هاتف : ٢٢٩١٧٧

الدار الشامية
للطباعة والنشر والتوزيع بيروت - ص.ب : ١١٣/٦٥٠١ - هاتف : ٣١٦٠٩٣

سعد ابن أبي وقاص

فارس القادسية



بسم الله الرحمن الرحيم

حدَّثَنا الفتى صادق أمين قال:

أويتُ إلى غرفتي، بعد أن صلَّيت العشاء جماعةً في مسجد الحيّ، مع أبي حفظه الله، تاركاً أمّي وأبـي وأختي صادقة يسمرون ويتحدّثون في بَهْو المنزل.

تمدَّدتُ على سريري، فانطلقت روحي تسرح في عالم الخيال، وانثالت الأفكار والأحلام على بالي، مختلطةً متشابكةً، ولم ينقذني منها سوى أحاديث الأسرة التي كانت تتناهى إلى مسامعي، ثم ما لبثْ أن استأثرت باهتمامي، وشدَّتْ إليها انتباهي.

كـان أبـي يتحـدّث عـن الصحـابـة الكـرام، الـذيـن مـات رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنهم، فذكر الخلفاء الراشدين الأربعة: أبا بكر الصدّيق، وعمر بن الخطاب، وعثمان بن عفّان، وعليّ بن أبـي طالب، رضي الله عنهم وأرضاهم.

ثم سأل أمّي العطوف الحنون، عمّا إذا كانت تعرف أسماء الصحابة الستة الباقين من العشرة، فأجابته بهذا السؤال:

ـــ هل تعني الصحابة العشرة المبشَّرين بالجنة؟

ـ نعم، والسؤال الآن موجَّهٌ إلى التلميذة النجيبة صادقة.

وسمعتُ أختي صادقة تجيب أبـي بقولها:

ـ الأمر بسيط جداً يا أبـي.. كلّ المسلمين يعرفونهم.. وأنت يـا أبـي عَـدَدْتَ أربعـة منهـم، وخـامسهـم: أبـو عبيـدة بـن الجـراح، والسـادس: عبـد الـرحمـن بـن عـوف، والسـابـع: الـزبيـر بـن العـوام، والثامن: طلحة بن عبيد الله، والتاسع: سعيد بن زيد، والعاشر.. والعاشر.. والعاشر..

فصحتُ من غرفتي: سعد بن أبـي وقّاص..

فقالت صادقة: والعاشر: سعد بن أبـي وقّاص. رضي الله عنهم جميعاً.

فهتف والدي: عظيم.. بارك الله فيك يا صادقة.. بارك الله فيك يا ولدي يا صادق.

وسكت والدي هنيهة ثم قال:

ـ أحسنتِ يا صادقة، وإن..

ـ وإن نسيت اسم القائد العظيم سعد.. أليس كذلك يا أبـي؟

ـ طبعاً يا بنتي.. فمن ينسى اسم هذا القائد الفاتح الذي فتح بلاد العراق، وكثيراً من بلاد فارس.

فقالت صادقة:

ـ أنـا أعـرف هـذا يـا أبـــي، وأعـرف أنـه فتـح أذربيجـان،

والجزيرة، وبعض بلاد أرمينية، كما أعرف أنه خال رسول الله ﷺ، ومع ذلك، غاب عن ذهني.

وقالت أمي:

ــ أنا أنسى ــ أحياناً ــ اسم سعيد بن زيد، وأحياناً أخرى اسم عبد الرحمن بن عوف، رضي الله عنهم جميعاً.

وسمعت أبي يقول:

ــ قد ينسى الناس كثيراً من الصحابة، وكثيراً من القادة الفاتحين، ولكنَّهم لن ينسوا القائد البطل سعد بن أبي وقّاص، لما له من أعمال خالدة، ومعارك مظفَّرة، زيّنت صفحات التاريخ الإنساني، وشرّفت تاريخنا العسكري.

وفيما كان أبي يتحدّث بحماسته المعهودة فيه عن هذا الصحابيّ الجليل سعد، تراءى لي شخص في وسط بقعة من نور ساطع، عليه مخايل الوقار، وفي وجهه وُدٌّ ومهابة، وإذا أختي صادقة تمسك بيدي، وتشير إلى ذلك الرجل، وتسأل:

ــ هل عَرَفْتَه يا صادق؟

ــ لا يا أختي، لم أعرفه بعدُ.

قالت، وهي ما تزال متشبّثة بيدي:

ــ اذهبْ إليه، وتعرَّفْ عليه.

ولكن الرجل الوقور كان أسبقَ منّي، فقد تقدَّم نحونا وسلَّم:

ـ السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.

ـ وعليكم السلام ورحمة الله وبركاته.

ونهضتُ مرحّباً:

ـ أهلاً بك يا عمّ.. أنت في بيتك، وبين أهلك.

ـ أهلاً بكم يا أولادي..

ثم نظر حوله وسأل:

ـ ولكن.. من أنتم؟

ـ أنا صادق.. اسمي صادق.. وهذه أختي صادقة.. ونحن تلميذان صغيران، ولكن.. من أنت يا سيِّدي؟

فابتسم الرجل الوقور وقال:

ـ أما كنتم تتحدّثون عنّي قبل قليل؟

فهتفتُ:

ـ عرفتُك.. عرفتُك يا سيِّدي.. أنت القائد العظيم سعد بن أبي وقّاص.

فَغَضَّ الرجل من طَرْفه حياءً، فاستغلَّتْ صادقة هذه اللحظة، وقالت مرحِّبةً به:

ـ أهلاً بخال رسول الله ﷺ..

أهلاً بالفاتح العظيم الذي بشَّره الرسول القائد بالجنة، وفداه بأبيه وأمّه، وفاخر به أصحابه الكرام.

وقلتُ أنا، وأنا أعترف بأني غيور.. كثيراً ما تأخذني الغيرة من أختي التي تحسن تدبيج عباراتها، واختيار معانيها:

ــ أهلاً بالفارس الشجاع الذي كان يحرس رسول الله في غزواته.

فازداد حياء الرجل، وعندما رآنا قد سكتنا، رفع رأسَه، وبصرُه في الأرض، وقال:

ــ أهلاً بكم يا أولادي.. يا أحبّاء رسول الله ﷺ.. فلئن كنتُ صاحبَ رسول الله وخالَه وحارسَه، إنكم لأحبّاؤه..

وقدّمْنا لضيفنا كرسيًّاً ليجلس عليه، ولكنه آثر الجلوس على الأرض، وقال: هكذا كنا نجلس.. وهكذا كان رسول الله يجلس على الحصير، حتى تؤثر الحصير بجسده الشريف.

وجلسنا نحن قبالته على الأرض، فوق بساط متواضع، ثم تحفّزتْ صادقة للكلام، فقالت وهي تنظر إليّ:

ــ ألا تقدّم لنا نفسك يا سيِّدي المجاهد؟

فاستغربتُ هذا من صادقة.. وقرأتْ صادقةُ هذا في عينيَّ، فابتسمتْ وقالت، وهي تنظر إلى الضيف الجليل:

ــ السؤال موجَّهٌ إليك يا سيِّدي سعد.. أرجو أن تعرّفنا بنفسك..

أجاب الرجل الكبير:

ــ حباً وكرامة يا أولادي..

اسمي سعد بن مالك بن أبـي وقّاص.. وأكثر الناس كانوا ينادونني هكذا: سعد بن مالك، وكنيتي: أبو إسحاق.. وُلدتُ في مكة المكرمة قبل الهجرة بثلاثٍ وعشرين سنة، وأسلمتُ على يد أبـي بكرٍ الصِّدِّيق، وأنا ابنُ سبعةَ عشرَ عاماً، وعشتُ ثمانياً وسبعين سنة.

فعلّقت أختي صادقة على عمره المديد بقولها:

ـ خيركم من طال عمره، وحَسُن عمله.. وحياتك ـ يا جدّي العزيز ـ مليئة بجلائل الأعمال.

وكعادتي في منافسة أختي، اقتربتُ من الرجل الجليل وقلت له:

ـ إذن أنت، يا سيِّدي سعد، من السابقين الأوّلين إلى الإسلام؟

ـ الحمد لله الذي هداني إلى الإسلام، بوساطة أبـي بكر رضي الله عنه، وما أسلم أحدٌ في اليوم الذي أسلمتُ فيه، ولقد مكثتُ سبعةَ أيام، وإني لَثُلُثُ الإسلام.

ـ يبدو أنّ شخصية أبـي بكر ـ يا سيِّدي ـ شخصية مؤثِّرة، فقد عرفتُ أنَّ كثيرين من كبار الصحابة، اهتدَوْا على يده.

اعتدل الصحابـيّ الجليل في جلسته وقال:

ـ اسمع يا بُنيّ.. اسمعي يا بنتي.. وعُوا جيّداً ما أقوله لكما عن الصِّدِّيق. كان أبو بكر آلفاً مألوفاً.. يألف الناس، ويألفه الناس، ويثقون به، وكان محبَّباً سهلاً، وكان أعلمَ الناس بأنساب قريش.

وأعلمَ قريشٍ بما كان فيها من خير وشرّ، وكان رجلاً تاجراً، ذا خُلُقٍ ومعروف، وكان رجال قومه يأتونه، ويستشيرونه في كثير من قضاياهم، لأسباب كثيرة، لعلمه، وتجارته، وحسن معاملته، وطيب مجالسته.. ولمّا أسلم أبو بكر، وأظهر إسلامه، ودعا إلى الله ورسوله، جعل يدعو إلى الإسلام من يثق به من قومه، ممن يغشىٰ بيتَه ومجالسَه، فأسلم على يديه كلٌّ من الزبير بن العَوَّام، وعثمان بن عفّان، وطلحة بن عبيد الله، وعبد الرحمن بن عوف، وسعد بن أبي وقّاص الذي يحدّثكم..

ــ ما شاء الله.. ما شاء الله.. خمسة من العشرة المبشَّرين بالجنة أسلموا على يد أبي بكر؟

ــ لأنّ أبا بكر كان موثوقاً، يثق به الناس، ويطمئنون إلى حديثه العذب، ويرتاحون لرجاحة عقله، وحُسْن تدبيره وتفكيره..

ــ نعم يا سيِّدي.. نحن مُصْغون إليك.

فتابع سعدٌ يقول، مستذكراً ما كان في تلك الأيام التي كُتب له فيها السعادة:

ــ وانطلقنا مع أبي بكر، نحن الخمسة أو الستة، حتى أتينا رسول الله ﷺ، فعرض علينا الإسلام، وقرأ علينا القرآن، وأنبأنا بحقّ الإسلام، وبما وعدنا الله من كرامة، فآمنّا، وصدَّقْنا رسولَ الله، وكنّا معه، ننشر دعوته، ونتلقَّى العذاب من المشركين ونحن راضون، لأنّ ذلك في سبيل الله.

فقالت صادقة:

ـ إذن.. تعرّضتَ أنت يا سيِّدي للتعذيب؟

ـ وهل نجا أحدٌ من أذى المشركين يا ابنتي؟ حتى رسول الله ﷺ لم يسلم من أذاهم.

فتنخنحتُ وقلتُ:

ـ ألا تذكر لنا بعض صور التعذيب يا سيِّدي؟

فقالت صادقة:

ـ مع أنّ أعصابي لا تحتمل سماع التعذيب، لأنه يذكّرني بما يلقاه بعض الدعاة في أيامنا هذه، فإني سأستمع إليك يا سيِّدي، على أن ترحم أعصابي وقلبي.

فقال سعد، ووجهه يطفح بالنور:

ـ لمّا علمتْ أمّي بإسلامي، غضبتْ غضباً شديداً، وحلفتْ أنْ لا تكلّمني، وأن لا تأكل ولا تشرب، حتى أكفر بدين محمد، وأعود إلى دين آبائي وقومي.. دين الشرك والوثنية، فقلت لها: لا تفعلي يا أمي، فإني لن أترك هذا الدين، لأنه دين الله، دين الحقّ.

ـ وهل استجابت لكلامك يا سيِّدي؟

ـ لا.. لم تستجب لكلامي هذا؟ كما لم تستجب للإسلام عندما دعوتُها إليه، بل قالت لي: زعمتَ أنّ الله أوصاك بوالديك، فأنا أمّك، وأنا آمُرك بترك محمد ودينه، وإلاَّ.. فلن آكل ولن أشرب حتى أموت، فتُعَيَّرَ بي..

ـ فماذا قلتَ لها يا سيِّدي سعد؟

ـ أصررْتُ على موقفي، وأصرَّتْ هي على موقفها، ومكثتْ ثلاثةَ أيام لا تأكل ولا تشرب، حتى غُشِي عليها من الجهد، فقام ابنٌ لها يقال له: عمارة، فسقاها، فجعلتْ تدعو عليّ، فقلتُ لها: والله لو كانت لك مئة نفس، فخرجتْ نفساً نفساً، ما تركتُ ديني.. إن شئتِ فكُلي، وإن شئتِ فلا تأكلي. فنزل قول الله تعالى:

﴿وإن جاهداك على أن تشرك بي ما ليس لك به عِلْمٌ، فلا تُطِعْهما، وصاحبْهما في الدنيا معروفاً﴾.

ـ ثم ماذا يا سيِّدي؟ هل تراجعتْ عن موقفها؟

ـ أجل يا بُنيّ.. فلمّا رأت ذلك مني، أكلتْ وشربتْ..

فسألت أختي صادقة:

ـ هل بقيتما متقاطعين يا سيِّدي سعد؟

فاربدَّ وجه سعد وقال:

ـ كيف تسألين هذا السؤال يا بنتي، وقد قرأتُ عليكِ قبل قليل، قولَ الله تعالى وأمْرَه، بأن نعامل أبوينا المشركين معاملة طيبة؟ لقد بقيتُ على برّي بها، وأنا على إسلامي، وهي على شركها.

فقالت صادقة معلّقةً وملطِّفةً جوَّ الغضب الذي ألمَّ به:

ـ وبقيتَ طوال حياتك يا سيِّدي سعد، وفي سائر أحوالك وشؤونك، رجل العقيدة والمبادىء، شديداً في الحقّ، لا تأخذك لومةُ لائم.

وقلت أنا، ومعذرةً من كلمة أنا، لأنني اعتدتُ على قولها منذُ صغري، وهي لا تعني شيئاً والله، فأنا بعيد عن الأنانية والغرور، إذ كيف يكون أنانياً أو مغروراً، من يعيش في واقعه وفي أحلامه مع هؤلاء الرجال العظام؟. قلت له:

ــ هل من ذكريات أخرى في هذا المجال، يا سيّدي المجاهد؟

فهَمْهَمَ سعد بن أبـي وقّاص وتنحنح، ثم قال:

ــ أجل يا بني.. هناك ذكريات وذكريات.. واسمعوا هذه الذكرى العزيزة على قلبـي:

كنّا في بداية إسلامنا، إذا أردنا الصلاة، ذهبنا إلى شِعاب مكة، بعيداً عن أنظار قريش. وذات يوم، رآنا نفرٌ من المشركين ونحن نصلّي هناك. فناكرونا، وصاروا يسخرون منا، ويعيبون ديننا، حتى قاتلناهم، فضربتُ رجلاً منهم بعظمة جملٍ التقطتها من الأرض، فجرحْتُه، فكان هذا أوّلَ دمٍ أريقَ في الإسلام.

فعلّقت صادقة على هذه الحادثة قائلة:

ــ سلمتْ يدُك يا سيِّدي المجاهد، فبعض الناس لا يفهم إلاَّ هذه اللغة، لغة القوة.

وقال سعد:

ــ لقد لقينا ــ نحن المسلمين الأوّلين ــ عَنَتَاً شديداً من مشركي قريش، فلم يترك هؤلاء وسيلة للنيل منّا، إلاَّ استغلّوها.. واسمعوا هذه الحادثة: كنّا مع النبـيّ ﷺ ستة نفر، فقال المشركون للنبـيّ ﷺ:

اطرد هؤلاء، لا يجترئون علينا.. وكنتُ أنا وابن مسعود، ورجل من هذيل، وبلال، ورجلان آخران لستُ أسمّيهما. فوقع في نفس رسول الله ﷺ ما شاء الله أن يقع، فحدَّثَ نفسَه. فأنزلَ اللَّهُ عزَّ وجلّ:

﴿ولا تَطْرُدِ الذين يَدْعون ربَّهم بالغداة والعشيّ يريدون وجهَه، ما عليك من حسابهم من شيء، وما من حسابك عليهم من شيء فتطردَهم فتكونَ من الظالمين﴾.

قلتُ، والمرارة ملء نفسي:

ـ ما كان أخبثَهم!.. يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم، ويأبى الله إلاَّ أن يُتِمَّ نورَه.. يريدون إبعادكم، وإفسادَ ما بينكم وبين الرسول القائد، ولا يريدون الإسلام، ولا الإيمان بهذا الدين العظيم..

وقالت صادقة:

ـ هاتِ يا سيِّدي هات.. فسيرتكم بمآسيها وتجارِبها المريرة، ستكون دروساً لنا وعِبراً في مسيرتنا الدعوية.

قال سعد:

ـ أجل يا أولادي.. يجب أن تستفيدوا في حياتكم العملية، ممّا عانيناه نحن من كيد المشركين ومكرهم وتآمرهم... فقد لقينا منهم الألاقي.. لقد قاطعَنا المشركون، وقرّروا أنْ لا يبايعونا ولا يتزوّجوا منّا، ولا نتزوّج منهم، فأصابنا من الجوع والفقر والشدّة ما أصابنا، ولقد رأيتُني مع رسول الله ﷺ بمكة، فخرجت من الليل

أبول، فإذا أنا أسمع قعقعة شيء تحت بولي، فنظرت فإذا قطعةُ جلْدِ بعير، فأخذتُها، فغسلْتُها، ثم أحرقتُها، فرضضْتُها بين حجرين، ثم استففْتُها، فشربتُ عليها من الماء، فقويتُ عليها ثلاثة أيام.

فلم أملك نفسي أن هتفت:

ــ الله أكبر.. الله أكبر.. ما هذا يا خال رسول الله؟ هل بلغت بكم الأمور إلى هذه الدرجة؟ ونحن نظنّ أنّ ما يلقاه المسلمون في هذه الأيام من الشدائد؟

وقالت صادقة:

ــ هذا في مكة، وبأيدي المشركين، فهل لقيتم مثل هذا في المدينة المنوّرة بعد الهجرة؟

أجاب سيِّدي سعد بن أبـي وقّاص:

ــ أجل يا ابنتي.. لقد لقينا في هجرتنا، وفي إقامتنا نَصَباً.. فعلى الرغم من مؤاخاتي مع سعد بن معاذ رضي الله عنه، وكان سيِّدَ الأوس، وعلى الرغم من الإكرام الذي لقيناه من الأنصار، من الأوس والخزرج معاً، فلقد كانت تمرّ علينا الأيام والليالي، ونحن لا نجد ما نأكل إلاَّ الأعشاب والحشائش، وورق الشجر، وخاصة في أيام الغزو.. فوالله إنَّا لنغزو مع رسول الله ﷺ، وما لنا طعام إلاَّ ورق الشجر، حتى إنّ أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة، ما له خلط.

نظرتْ إليّ صادقة، تستفهم عن معنى العبارة الأخيرة، فغمزتها بعيني، أي سوف أشرح لك معنى: (إنّ أحدنا ليضع كما يضع البعير أو الشاة، ما له خلط).

وأردتُ تغيير مجرى الحديث الذي أوجَعَنا وآلمنا، فقلت له:

ـ نحبّ أن نسمع منك، يا سيِّدي المجاهد، حديث الجهاد والمجاهدين.

فبدا النشاط على المجاهد العظيم، وأقبل علينا يقول:

ـ كانت مهنتي منذ الصِّغَر، بَرْيَ السهام، وصناعة القِسِيّ، وكانت السهام والقسيّ من عُدَد الحرب في زماننا، وربحتُ مالاً كثيراً من مهنتي هذه.

ـ يبدو أنها كانت من أدوات القتال المهمة.

ـ أجل يا صادق..

ـ ثم ماذا يا سيِّدي؟

ـ وكنتُ أول رجل من العرب، رمى سهماً في سبيل الله.

فسألتْ صادقةُ:

ـ متى؟ وكيف يا سيِّدي؟

ـ كنتُ في أول سريَّة أرسلها رسول الله ﷺ، لاعتراض القوافل التجارية لقريش. والتقينا المشركين، وكانوا بقيادة أبي سفيانَ بن حرب، ولم يكن بيننا قتال، غير أني رميتُهم يومئذٍ بسهم، فكان سهمي هذا أول سهمٍ رُمي في الإسلام.

ـ هل كنتَ أمير السريَّة يا سيِّدي؟

ـ لا.. كنتُ فيها، كما قلت.. وكان أميرها عبيدة بن الحارث بن عبد المطلب، ابن عمّ النبيّ ﷺ.

ـ أليس هو الذي برز للمشركين في غزوة بدر، واستشهد فيها؟

ـ بلى.. إنه هو، رضي الله عنه وأرضاه.. وفي هذه السرية، استطعت أن أحمي المسلمين بنِبالي، وأنْ أجنِّبَهم هزيمةً كانت ستقع بهم، فردّ الله بـي كيد المشركين، وانصرفوا مقهورين.

وشاهدت سعداً يبتسم، فسألته عمّا دعاه إلى الابتسام فقال:

ـ تذكرتُ بيتين من الشعر، قلتُهما في هذه السَّريَّة، فهل تريدان سماعهما؟

فهتفنا معاً: أجل يا سيِّدي نريد..

فتنحنح ثم قال: قلت:

ألا هل أتىٰ رسولَ الله أنّي … حَمَيْتُ صحابتي بصدور نَبْلي

فما يعتدُّ رامٍ في عدوٍّ … بسهمٍ، يا رسولَ الله، قبلي

ـ إذن أنت شاعر أيضاً يا سيِّدي؟

ـ لا.. لستُ شاعراً، وإنما هي خطرات تجيش بها النفس، فينطلق بها اللسان، كعادة أكثر العرب في مثل هذه المواقف.

وسألتْ صادقةُ عن الفرق بين الغزوة والسريَّة، فأجابها سعد:

ـ الغزوة هي التي يقودها رسول الله ﷺ، كغزوة بدر، وغزوة أُحُد، وغزوة الخندق، وسواها. أمّا السريَّة، فهي الغزوة التي لا يكون فيها الرسول القائد ـ حسب تعبيركم الجميل ـ بل الرسول القائد يبعثها بإمرة واحد من أصحابه الأبطال، كهذه السَّريَّة التي حدّثتكم عنها، وكانت بإمرة القائد عبيدة بن الحارث رضي الله عنه.

ـ عظيم.. ثم ماذا أيها المجاهد الباسل؟

فأغضىٰ سعدٌ حياءً ثم قال:

ـ أرجو ألاّ تُطْروني.. فما اعتدنا على هذا، كما نهى النبيُّ الكريم عن مدح أخيك في وجهه، حتى لا تقصم ظهره..

ـ إن شاء الله.

قال سعد:

ـ عقد لي رسول الله ﷺ راية على عشرين مقاتلاً من المهاجرين، للّحاق بقافلة تجارية لقريش، ولكنّها أفلتتْ منّا.

ـ وماذا عن دورك في غزوة بدر يا سيّدي؟

ـ قبل نشوب المعركة، أرسلني النبيُّ القائد مع عليّ بن أبي طالب في مهمة استطلاعية إلى ماء بدر، فأسرْنا غلامين لقريش، وعُدْنا بهما إلى الرسول الكريم، فاستنطقهما، وعرف منهما مكان قريش، وعددها، وأنَّ أشرافها قد خرجوا لقتال المسلمين.

فقلتُ معلّقاً:

ـ هذه عبقرية حربية من الرسول القائد، أن يرسلكم للاستطلاع، وجلب المعلومات.

ـ وفي هذه الغزوة، أبليتُ في المعركة بلاءً أثلجَ صدرَ رسولِ الله ﷺ، وأسرْتُ اثنين من المشركين.

ـ وفي غزوة أُحُد يا سيِّدي؟

ـ وفي غزوة أُحُد يا حفيديّ الكريمين، قاتلتُ قتالاً، رجوتُ فيه أن أرضي الله ورسوله وجماعة المسلمين، وكنت إلى جانب رسول الله، عندما اشتدّ الكربُ، وفرَّ الناس... ثبتُّ إلى جانب النبيّ الكريم، وكنتُ أذبُّ عنه بالنَّبْل، وكان عليه السلام يناولني السهام: ويقول لي: ارمِ سعد، فداك أبي وأمّي.. بأبي هو وأمّي ونفسي وولدي.. فقد جمع لي رسول الله ﷺ أبويه.

فسألت صادقة:

ـ معنى ذلك، أنَّك رميتَ الكثير من السهام؟

ـ رميتُ ألف سهم في أُحُد. وقد دعا لي النبيّ فقال: اللهمّ سدِّدْ رَمْيَتَه، وأجبْ دعوته.

ـ ما شاء الله..

ـ سلمت يمينك يا سيِّدي سعد.

ـ ودعا لي رسول الله مرّة ثانية فقال: اللهمّ استجبْ لسعدٍ إذا دعاك. فكنتُ إذا وضعتُ السهم في القوس، وأردتُ أن أرمي، دعوتُ هذا الدعاء: اللهم زلزلْ أقدامهم، وأرعبْ قلوبهم، وافعلْ بهم، وافعلْ بهم، فيقول النبي ﷺ: اللهمَّ استجبْ لسعد.

قالت صادقة في انشراح وسعادة ظاهرة:

ـ وبهذا.. بفضل دعاء الرسول القائد لك يا سيِّدي، صرتَ مستجاب الدعوة، وصار المسلمون يخشونك، ويخافون من دعواتك.

ـ هذا لأنّ النبيَّ الكريم نفسه، قد حذَّر المسلمين من

دعواتي، فقال لهم منبِّهاً ومحذِّراً: اتَّقوا دعوات سعد.

أقبلتُ بكليتي نحو سعد، وقلت له:

ـ ألا تذكر لنا يا سيِّدي شاهداً على استجابة دعواتك؟

ـ أذكر لكم شواهد إن أحببتم..

تخاصمتُ مرة مع عمر بن الخطاب رضي الله عنه، فضربني بدِرَّته، فرفعْتُ يديّ لأدعوَ عليه، فأسرع عمر نحوي معتذراً، وأعطاني الدرّة لأقتصَّ منه، وأضربه كما ضربني، وقال لي: اقتصّ.

ـ فهل اقتصصتَ منه يا سيِّدي؟

ـ وهل تراني لئيماً لأقتصَّ من صاحب رسول الله ﷺ ووزيره؟

ـ إذن عفوتَ عنه؟

ـ طبعاً عفوتُ عنه، ولم أدعُ عليه..

ومرةً تخاصمتُ مع عبد الله بن مسعود رضي الله عنه، فأردتُ أن أدعو عليه، فقال لي: قل قولاً ولا تلعن. فسكتُّ، ثم قلت له: لولا اتقاءُ الله، لدعوتُ عليك دعوةً ما تُخْطِئُك.

ـ الله أكبر.. عمر وابن مسعود يخافان من دعواتك؟

وقالت أختي صادقة:

ـ لقد اقشعرّ بدني خوفاً من دعواتك يا سيِّدي سعد، ومع ذلك، أريد شاهداً لدعائك على بعض الفسقة، والمتطاولين عليك.

قال سعد رضي الله عنه:

ـ شكاني أهل الكوفة إلى أمير المؤمنين عمر، وزعموا له أنّي لا أحسن الصلاة، فأرسل عمر معي رجلاً ليسأل أهل الكوفة عني، فلم يدعْ ذلك الرجل مسجداً إلاَّ سأل فيه عني، وكان المسلمون يُثْنون عليّ، حتى دخل مسجداً لبني عبس، فقام رجلٌ منهم يُكنىٰ أبا سعدة فقال:

ـ أمّا إذ نشدْتَنا، فإنّ سعداً كان لا يسير بالسريّة، ولا يقسم بالسويّة، ولا يعدل في القضيّة.

ـ وأنت تسمع يا سيِّدي؟

ـ أجل.. وأنا أرى وأسمع.

ـ فماذا فعلت؟ هل سكتَّ له؟

ـ لا.. بل دعوتُ عليه.. قلتُ له: أما والله لأدعوَنَّ عليك بثلاث: اللهم إن كان عبدك هذا كاذباً، وقام رياءً وسمعة، فأطلْ عمره، وأطلْ فقره، وعرّضه للفتن.

ـ وهل استجيبتْ دعواتك هذه يا سيِّدي؟

قال سعد:

ـ أجل.. وكان يقول: أصابتني دعوة سعد.. كان يراه الناس شيخاً كبيراً مفتوناً، قد سقط حاجباه على عينيه من الكِبَر، وإنه ليتعرَّضُ للجواري في الطرق، يغمزُهنّ.

قلت معلّقاً في اشمئزاز:

ـ أعوذ بالله.. أعوذ بالله.

وسألتْ صادقةُ:

ــ هل من حادثة أخرى تشفي الغليل من هؤلاء الفسقة؟

قال سعد:

ــ نعم.. هناك حوادث.. وهذه واحدة..

بينما كنت أمشي، مررت برجلٍ يشتم علياً وطلحة والزبير. فقلت له: إنك تشتم أقواماً قد سبق لهم من الله ما سبق.. والله لتكفَّنَّ عن شتمهم، أو لأدعوَنَّ اللَّهَ عزّ وجلّ عليك.

فقلت مستبقاً كلامه:

ــ فخاف الرجل، وكفّ عن شتم صحابة رسول الله.

قال سعد:

ــ لا.. بل قال لي ساخراً: يخوّفني كأنه نبـيّ.

ــ فدعوتَ عليه؟

ــ قلت: اللهمّ إن كان يشتم أقواماً قد سبق لهم منك ما سبق، فاجعلْه اليومَ نكالاً.

ــ وبعدها؟

ــ بعدها.. جاءت ناقةٌ بُخْتيَّةٌ، فأفرج لها الناس، فتخبَّطته.

ــ يعني قتلته؟

ــ نعم.. فقال الناس: استجاب الله لك يا أبا إسحاق.

طربتْ أختي صادقة لهذه الأحداث، فطلبت المزيد منها، فقال سعد رضي الله عنه:

ـ لمّا كان يوم القادسيّة، وكنتُ القائد ـ كما تعلمون ـ وقد أصابتني قروحٌ منعتْني من المشاركة في القتال، فطالتْني ألسنةُ بعض المسلمين، وظنّوا بي جُبْناً، وقال رجل من قبيلة بجيلة التي أبلتْ في المعركة بلاء عظيماً. . قال معرِّضاً بي، ظالماً إياي:

ألم ترَ أنَّ الله أظهرَ دينَه | وسعدٌ بباب القادسية مُعْصَمُ
فَأُبْنا وقد أيمتْ نساءٌ كثيرة | ونسوةُ سعدٍ ليس فيهنّ أَيِّمُ

فدعوتُ عليه: اللهمَّ اكفِنا يدَه ولسانَه.

ـ وهل استجاب الله لدعوتك يا سيِّدي؟

ـ نعم. . إذ جاءه سهمٌ فأصاب يدَه فيبستْ، ولسانَه فخرس.

ـ الله أكبر. . كم أرجو منك دعوة صالحة يا جدّي العظيم سعد.

فدعا لي سعدٌ ولأختي بقوله: اللهمّ أنبتْهما نباتاً حَسَناً، واجعلْهما من المجاهدين الصالحين. .

وكانت أختي قد لمحتْ مظاهرَ الحزن في وجهه، وهو يتحدّث عن ذلك الرجل من بجيلة، فقالت:

ـ والله إني محتارة. . إذ كيف يجوز لأحدٍ من المسلمين أن يشكّك بشجاعتك وجرأتك يا سيِّدي؟

فهزّ سعدٌ رأسه وهو يقول:

ـ بل إنَّ أصحاب الشَّغَب لم يصدّقوني، حتى كشفتُ لهم عن ظهري، فرأوا تلك القروح الفظيعة.

واستثمرتُ المناسبة، وأردتُ تغيير الموضوع، فقلت:

ــ على ذكر القادسية.. ألا تحدّثنا عن تلك المعركة التاريخية الفاصلة، التي كانت حاسمة في فتوح العراق وبلاد فارس؟

فتنشّط سعدٌ بعد تلك الكبوة الحزينة، وقال:

ــ يا لها من معركة، أبلىٰ فيها المسلمون، قادةً وجنداً، بلاءً عظيماً، نَدَرَ مثيلُه في التاريخ.. وسوف ألخّص لكم هذه المعركة التي كانت مفتاح العراق، والممهِّدةَ لسقوط الدولة الفارسيّة الساسانية..

فتحفَّزْنا ــ أختي وأنا ــ لسماع هذه المعركة من قائدها، كأنّما نشطتُ أنا من عقال.. قال سعد:

ــ جمع يزدجردُ، كسرى الفرس، جموعاً هائلة لقتال المسلمين، وأسندَ قيادةَ تلك الجيوش إلى قائده المفضّل: رستم. وعلم المثنّى ــ رضي الله عنه وأرضاه ــ بتلك الحشود الهائلة التي أرادوا من ورائها، أن يستأصلوا شأفة المسلمين، بالهجوم عليهم من الشرق، فأرسل المثنى بنُ حارثةَ الشيبانيُّ يستمدّ أمير المؤمنين عمر، ويُطْلعه على حقيقة الموقف الخطير في العراق، وأعلن له عن انسحابه بجنده إلى ذي قار، فاهتمَّ لذلك عمر، وقال قولته المشهورة: والله لأضربَنَّ ملوك العجم بملوك العرب. وحشد عمر الناس، واختارني أميراً على جيش العراق، وقال لي وأنا أتأهب للتحرك بالجيش إلى هناك:

«إنّي قد ولَّيتُك حرب العراق، فاحفظْ وصيّتي، فإنَّك تُقْدِمُ على أمرٍ شديدٍ كريه، لا يَخْلُصُ منه إلاَّ الحقّ، فعوِّدْ نفسَك ومَنْ معك

الخير، واستفتحْ به، واعلمْ أنَّ لكلّ عادةٍ عَتاداً، وعَتادُ الخيرِ الصبرُ. فاصبرْ على ما أصابك».

فهتفتُ:

ـ يا له من قائد عظيم!. ويا لها من وصيّةٍ غالية، لقائدٍ حكيم.

وتابع سعد يقول:

ـ ولمّا وصلتُ إلى ذي قار، وجدتُ المثنّى قد انتقل إلى رحمة الله، متأثِّراً بجراحه القديمة يوم الجسر، فقد نغرتْ عليه من جديد، فقتلتْه.

فقالت صادقة، وكأنّها تحدّث نفسَها:

ـ المثنّى البطل الذي جرَّأ المسلمين على قتال الفرس.

وانتبه سعدٌ إلى كلامها، فعلّق عليه بقوله:

ـ كلامك صحيح جداً يا ابنتي، فقد كانت العرب تخشى من حرب الفرس، حتى جرَّأَهم المثنّى العظيم على حربهم وقتالهم..

ـ نعم يا سيِّدي.

ـ وجدتُ جيش المثنّى في انتظاري، فترحّمتُ على المثنّى، وحزنت عليه، وأثنيتُ عليه بما هو أهلٌ له، فقد كان المثنَّى قائداً عظيماً، وإنه لَصِنْوُ سيف الله خالد، وقد افتقدتُ بفقده قائداً فذّاً، لمعركة حاسمة، ولكنه قضاء الله والشهادة.. كم كنتُ في حاجة إليه.. إلى خبرته وخططه وحكمته وشجاعته.

وبدا التأثّر شديداً في وجه سعد، فقد كان يتمعَّرُ كمن يعاني من ألم شديد، ثم قال بعد أن استروح قليلاً:

ــ واستلمتُ وصيّة المثنّى من أخيه البطل: المُعَنَّى بن حارثة، وعيَّنْتُه مكان أخيه، وإكراماً للمثنّى البطل الذي لا يُشَقُّ له غبار، خطبتُ سلمىٰ زوجته، وتزوّجتُها.

فهتفتْ صادقة:

ــ بارك الله فيك يا سيّدي، فأُسَرُ الشهداء تستحقُّ كلَّ عناية وتكريم.

قال سعد:

ــ وعبّأتُ جيشي للحرب، فجعلتُ على كلِّ عشرةٍ عريفاً، وأمَّرْتُ على الرايات رجالاً أكفياء أنقياء، وولَّيْتُ على مقدّماتها ومجنَّباتها وساقاتها وطلائعها ومشاتها وفرسانها، قادةً أبطالاً، وعيَّنْتُ رجلاً على القضاء والفيء، ورجلاً ليعظ الناس ويرشدهم، وعيّنتُ مترجماً يجيد اللغة الفارسيّة، وسمَّيْتُ كاتباً وأميناً للسرّ.

هزّني كلام سعدٍ هذا، فانطلق لساني يقول، كأنني أحدّث نفسي بصوت مسموع:

ــ هناك قادة عسكريون شجعان، يجيدون فنون القتال، ولكنهم بلا دراية في الأمور الإدارية، فتدبّ الفوضى في الجيش، وتكون عامل هزيمة والعياذ بالله.. أليس كذلك يا سيّدي القائد المجاهد؟

ــ صدَقْتَ يا بني.. الأمور الإدارية، يجب أن تواكب التعبئة العسكرية، وإلاّ.. كانت الدائرة والهزيمة.

وقالت صادقة، تستحثُّه على الكلام:

ـ نعم يا جدّي العظيم.

قال سعد، وطيفُ ابتسامة يراود شفتيه:

ـ وشكّلتُ بعض المفارز، للإغارة على المناطق المجاورة، وبثثتُ عيوني هنا وهناك، لأتعرَّف أخبار العدوّ الفارسيّ، وقد عادوا كلُّهم يحملون المعلومات والغنائم.

قالت صادقة، والسعادة تغمرها غمراً:

ـ الحمد لله الذي هيّأ للمسلمين قائداً فذّاً مثل جدّي العظيم سعد.

ـ وأرسلتُ بعض رجالي الأذكياء للتفاوض مع كسرى ورستم، وليعرضوا عليهما: الإسلام، أو الجزية، أو الحرب. وكان لهؤلاء تأثير كبير على معنويات الفرس.

ـ ما شاء الله.. هذا توفيق من الله، فللمعنويات تأثير هائل في المعارك.

ـ وتهيَّأنا وتهيّأ الفرس للقتال، وأرسلَ إليّ رستم، يخيّرني في عبور النهر إليهم، أو عبورهم إلينا..

ـ فماذا اخترتَ يا سيِّدي؟

ـ قلتُ له: بل اعبُروا إلينا..

قلت لسعد القائد المَكِيْث:

ـ عفا الله عن القائد أبـي عبيد الثقفي، لو أنه ترك الفرس يعبرون إليه، ولم يعبر هو إليهم.

وقالت صادقة:

ـ مع أنّ المثنّى العظيم، وكلَّ قادة الجيش، كان رأيهم أن يعبر الفرس إليهم.

فقال سعد، ومسحةٌ من الحزن على وجهه:

ـ قضاء الله وقدره يا أولادي.. المهمّ أن نستفيد دروساً وعبراً من أخطائنا.

ـ نعم يا سيِّدي.. نعم.

ـ وقبل أن آذنَ بالقتال، أرسلتُ ذوي الرأي والعقل والنجدة إلـى النـاس، يـذكّـرونهـم بـالله، ويحضّـونهـم علـى القتـال. وأمـرتُ المسلمين أن يقرؤوا سورة الجهاد، سورة الأنفال، فلما قرؤوها، هشّتْ قلوبُهم، وفاضت عيونُهم، وسكنتْ نفوسُهم.

ـ ألا بذكر الله تطمئنُّ القلوب.

ـ وأرسلتُ أوامري إلى جيشي، أنِ الزموا مواقفكم، لا تحرِّكوا شيئاً حتى تصلُّوا الظهر، فإذا صلَّيتم الظهر، فإني مكبِّرٌ تكبيرة فكبِّروا، وشُدُّوا شسوعَ نعالكم، واستعدّوا، واعلموا أنّ التكبير لم يُعْطَه أحدٌ قبلكم، واعلموا أنّ ما أُعطيتموه هو تأييد لكم..

فإذا كبّرتُ الثانية، فكبّروا، وتهيّؤوا، ولتستتمَّ عدّتكم.

فإذا كبّرتُ الثالثة، فكبّروا، ولينشِّطْ فرسانُكم الناسَ، ليبرزوا وليطاردوا..

فإذا كبّرتُ الرابعة، فشدُّوا النواجذ على الأضراس، واحملوا، فازحفوا جميعاً، حتى تخالطوا عدوَّكم، وقولوا: لا حول ولا قوة إلاَّ بالله.

فهتفنا، أختي وأنا:

ـ الله أكبر.. الله أكبر..

ـ فلمّا صلّى الناس، كبّرتُ التكبيرة الأولى من فوق قصر (قُدَيس) فكبّر الأقربون إليّ، وكبّر الناس بتكبير بعض، وتحمّسوا للقتال، فارتجّتْ لتكبيرهم الأرض، وتجاوبت الأصداء عبر الفضاء، ثم كبّرتُ التكبيرة الثانية، وكبّر المسلمون، واستعدّوا للقتال، ثم كبّرتُ الثالثة، فبرز أهل النجدات، وأنشبوا القتال، وخرج لهم فرسان الفرس، فتبادلوا الطعنات والضربات.

فسألتُ سيِّدي سعداً:

ـ مثل مَنْ من أهل النجدات يا سيِّدي؟

ـ كانوا كُثُراً، أذكر منهم ربيعةَ بنَ عثمان الذي قَتَلَ أولَ أعجمي في القادسية، وغالبَ بن عبد الله الأسديّ الذي برز له هُرْمُز، وكان هرمز من ملوك الباب، وعلى رأسه تاج، وكان من قادة الفرس وأبطالهم، فلم يلبث غالبٌ أن أسره أسراً، وجاءني به، فأدخله عليّ، وانصرف إلى مبارزة جديدة.

ـ الله أكبر.. الله أكبر.

ـ وكان منهم البطل الصنديد: عاصم بن عمرو.

ـ أخو القعقاع بن عمرو؟

ـ أجل.. واسمعوا ما كان منه..

ـ تفضّلْ يا سيِّدي.

ـ طارد عاصمٌ رجلاً من العجم، فهرب منه الفارسيُّ، وتبعه عاصم، حتى خالط صفَّ الفرس، فالتقى فارساً معه بغل، فترك الفارسُ البغلَ، واحتمىْ بأصحابه، فاستاقَ عاصمٌ البغلَ والرَّحْل، حتى بلغ صفَّ المسلمين، فكشف عن الغنيمة، فإذا ذلك الرجل كان طبّاخ رستم، وإذا ذلك الذي كان معه، هو طعام رستم من الأخبصة والعسل المعقود، فأتاني به، ورجع عاصمٌ إلى موقفه.

فسألت أختي:

ـ لا بدّ أنه كان طعاماً طيّباً.

فردّ سعد رضي الله عنه:

ـ لا بُدّ.. وإن كنتُ لم أذقه.

ـ ولماذا يا سيِّدي؟

ـ أعدتُه إلى عاصم ورجاله، فتغدَّوا يومها بغداء رستم.

ـ هل من طُرْفة أخرى يا سيِّدي سعد؟

ـ أجل.. اسمعوا ما كان من أمر البطل عمرو بن مَعْدِيْ كَرِب الزبيدي.

ـ هات يا سيِّدي هات.

ـ خرج فارس من العجم يطلب المبارزة، ويصيح (مَرْد ومَرْد) أي: رجل لرجل. وكان عمرٌو يسير بفرسه بين الصفّين، يحرّض المسلمين ويحمّسهم. وكان قد تجاوز مئة سنة من عمره، كان يقول:

«يا معشر المجاهدين، كونوا أسوداً، فإنما الأسد من أغنى شأنه، واعلموا أنّ الرجل من هؤلاء الأعاجم، إذا فقدَ قوسه، فإنما هو تيس». فرماه ذلك الفارس بنشّابة أصابت قوس عمرو، فالتفتَ إليه عمرو، ثم حَمَلَ عليه، فبارزه، ثم اعتنقَه وأمسكه من حزامه، وسحبه من فوق فرسه، فحمله ووضعه بين يديه على فرسه هو، ثم عاد به إلى صفوف المسلمين، فلما اقترب منهم، كسر عنقه، ورماه على الأرض، ونزل إليه، فذبحه من حلقه بالسيف، وأخذ سلبه، وكان سوارين من ذهب، ومنطقة من ذهب، ويَلْمقاً من ديباج، ثم التفت إلى المسلمين وقال لهم: هكذا فاصنعوا بهم.

ـ الله أكبر.. الله أكبر..

سألتُ في لهوجة:

ـ عفواً سيِّدي القائد.. كم كان عدد المسلمين؟

ـ حوالي ثلاثة وثلاثين ألفاً..

ـ وجيش الفرس؟

ـ حوالي مئتي ألف.

ـ يعني كانوا أضعافكم.

ـ نحن يا بنيّ، لا نقاتل بكثرة العدَد والعُدد.. نحن نقاتل بهذا الدين، وقد تكفَّلَ الله بنصرة دينه.

حَدَجتْني صادقةُ بنظرة عاتبة، فسكتُّ، وتابع سعدٌ يقول:

ـ ثم كبّرتُ التكبيرة الرابعة، فكبّر المسلمون، وزحفوا نحو أعدائهم.

ـ الذين يزيدونهم أضعافاً مضاعفة.

وتابع سعدٌ يروي ما شهد:

ـ وحمل أصحاب الفيلة من الفرس، ففرّقوا كتائب المسلمين، وفرّت الخيول أمام الفيلة، ولكنّ المشاة صمدوا وصبروا، فتكبّدوا خسائر جسيمة. وكان اليوم الأول، واسمه (أرماث) من أشدِّ ما لقينا من الفرس وأفيالهم الثلاثين، فأمرتُ منادياً ينادي في الجيش: «ألا إنَّ الحسد لا يحلُّ إلاَّ على الجهاد في أمر الله.. يا أيُّها الناس، فتحاسدوا وتغايروا على الجهاد».

فبرز الأبطال، برز طليحةُ بن خويلد مع قومه من بني أسد، فكان لهم بلاء عظيم، وبرز عاصمُ بن عمرو مع شجعان بني تميم، وهاجموا الأفيال، وكان استبسالهم كاستبسال بجيلة وبني أسد، بل أعظم. يا لَعاصمٍ من بطل لا يعدله إلاَّ أخوه القعقاع، فقد كفانا أفيال الفرس، بحنكته، ودربته، وشجاعته، وبسالة رجاله.. فلم يتركوا فيلاً إلاَّ وعُواؤه يملأ الآفاق، والصناديق تتهاوى بمن فيها من المقاتلين على الأرض، لينقضّوا عليهم ويقتلوهم.. وكان في كل صندوق من تلك الصناديق التي تحملها الفيلة، ما لا يقلّ عن عشرين مقاتلاً.

وتنفّس سعدٌ الصُّعَداء، ثم تابع يقول:

ـ واستمرّ القتال حتى غربت الشمس، ودخل بعض الليل، وكان يوماً مُجْهداً شديداً، فلما حاجز الليل بيننا، رجع المسلمون إلى مواقعهم، ورجع الفرس إلى مواقعهم.

قلتُ والألم يعتصر قلبي:

ـ يا لطيف. . إنّ أفيال الفرس في هجومها على جيش المسلمين، كالدّبابات والمصفّحات في أيامنا هذه.

كأنّ سعداً لم يسمع كلامي، أو كأنه لم يعرف ماذا أعني بالدبابات والمصفحات، لأنه لم يعلّق عليه، بل تابع يقول:

ـ ولم تشرق شمس اليوم الثاني من أيام القادسية، واسمه (أغواث) إلاّ والمسؤولون عن دفن الشهداء قد أنجزوا مهمّتهم، ودفنوا شهداءنا في مكان اسمه (العُذَيب) كما نقلوا الجرحى إلى هناك، لتتولى النساء مداواتهم، والعناية بهم.

فقالت صادقة، وكأنّها تتحدث إلى نفسها:

ـ أعددتم لكلّ شيء عدّته والحمد لله، وكان لجدّاتنا المجاهدات دَوْرُهنّ العظيم في هذه المعركة.

قال سعد، وكأنه لم يسمع كلام أختي، لأنه كان يعيش أحداث المعركة الهائلة في القادسية:

ـ وجاء القعقاع على رأس ألف بطل من الشام، فأبلى ورجاله بلاء عظيماً، ورفعوا معنويات المسلمين، وكسروا معنويات الفرس.

فقلت: القعقاع.. وما أدراك ما القعقاع..

وتابع سعدٌ يقول:

ـ مضى اليومان الأولان، والحرب سِجال بيننا وبين الفرس. وفي اليوم الثالث، يوم عُماس، عادت الفيلة إلى ساحة المعركة، فأرسلتُ إلى القعقاع وأخيه عاصم أن يكفياني الفيل الأبيض، كما أرسلتُ إلى جماعة من بني أسد، أن يكفوني الفيل الأجرب، وكانت الفيلة تتبع هذين الفيلين، فحمل القعقاع وعاصم على الفيل الأبيض، وفقآ عينيه، وقطعا مشفره، فهام على وجهه يعوي، كما جرح بنو أسد الفيل الأجرب، فوثب إلى النهر، وولَّت سائر الفيلة هاربة خلفهما.. واستمرَّ القتال إلى الليل، وسُمّيتْ تلك الليلة بليلة الهرير، فقد زحف القعقاع على الفرس، فأثار نخوة الرجال، فتبعوه يقاتلون أشدَّ قتال، وكان صليل السيوف وحده هو المسموع في تلك الليلة..

فهتفتْ صادقة بأعصاب محترقة:

ـ أسرعْ يا سيِّدي أرجوك.

ـ وسمعتُ صوت القعقاع يهدر في منتصف الليل، فاستبشرتُ خيراً، وعَرَفْتُ أنَّ تباشير الفتح قد أهلَّتْ..

ـ الله أكبر..

ـ ولكنّي بتّ ليلة لم أبت مثلها في حياتي، ورأى العرب والعجم أمراً لم يروا مثله قطُّ، وكنت لا أملك إلاَّ الدعاء، فقد حبستني الدمامل في فخذيّ وسائر جسمي.

قلت:

ــ وأنت مستجاب الدعاء يا سيّدي سعد.

وقالت صادقة تستحثّه:

ــ ثمّ ماذا يا جدّي العزيز؟

ــ ثمّ استمرّ القتال حتى ظهر اليوم الرابع، فقُتل رستم قائد الجيش، فانهزم قلب جيش الفرس، وانهزم بانهزامه سائر الجيش الفارسيّ، فقتلنا منهم مقتلة عظيمة، وغرق منهم في النهر خلقٌ كثير، واندحرت فلولهم المهزومة إلى بلادهم، يعلوهم عار الهزيمة المنكرة التي مُنُوا بها، على أيدي صناديدنا الأشاوس.

فهتفنا معاً: الله أكبر.. الله أكبر.

ثم سألت صادقة:

ــ وهل انتهى دورك هنا يا سيِّدي القائد سعد؟

ــ لا.. فقد أمرت بعض القادة من أهل النجدات، كالقعقاع وأخيه عاصم بمطاردة الفرس. فانهارت معنوياتهم انهياراً عجيباً، حتى كان المجاهدُ منّا يدعو الرجلَ منهم، فيأتيه حتى يقف بين يديه ليضرب عنقه. وقد لا يكون مع المسلم سلاح، فيأخذ السلاح من الفارسيّ فيقتله به، وحتى بلغ الأمر بالمسلم، أن يجيء بمقاتلين من الفرس، فيأمر أحدَهما بقتل صاحبه، فيفعل.

فتذكرتُ قول الله تعالى:

﴿ومَنْ يُهِنِ اللَّهُ فما له مِنْ مُكْرِمٍ﴾.

وقد أهان الله أولئك المجوس، فأذلّهم، كما أهانوا وأذلّوا العرب والشعوب التي كانت تخضع لهم. ثم قلت:

ـ ثمّ ماذا يا سيِّدي؟

ـ ثمّ كتبتُ إلى أمير المؤمنين عمر، أبشّره بالنصر، وأصف له جند المسلمين الذين كانوا يَدْوُون بالقرآن دَوِيَّ النحل، كلمّا جَنَّ عليهم الليل، وهم آساد الناس، ولا يشبههم إلاَّ الأسود، ولم يَفْضُلْ من مضىٰ منهم، مَنْ بقي، إلاَّ بفضل الشهادة إذا لم تُكْتَبْ لهم.

كانت صادقة تهزُّ رأسها وهي تستمع إلى وصف سعد لجنده، ثم قالت له:

ـ لقد أنصفْتَ جندك يا سيِّدي، ولم تكن كأولئك الذين يَعْزُون كلَّ انتصار لهم، ولا يذكرون الجنود المجهولين الذين يجاهدون ويبذلون من دمائهم وأرواحهم ما يحقِّق النصر على العدوّ . .

وكعادة سعد، لم يُعِرْ كلامها أيَّ انتباه، بل تابع يقول:

ـ ولبثتُ في القادسية شهرين أنتظر أوامر أمير المؤمنين، حتى جاء إذنُه بفتح عاصمة كسرى، فتوغّلْنا في أرض عراق العجم، وحقَّقْنا انتصاراتٍ كبيرة في عدد من المعارك، ثم عَبَرْنا النهر بخيولنا، وقد تقدّمتْنا كتيبةُ الأهوال، بقيادة عاصم بن عمرو، وتلتْها الكتيبة الخرساء، بقيادة القعقاع، وحقّقنا عنصر المفاجأة على الفرس، ففرُّوا بأرواحهم، ودخلْنا (المدائن) عاصمة كسرى، ووقفتُ في الإيوان، وانطلق لساني يتلو قول الله تعالى:

﴿كم تركوا من جناتٍ وعُيُون، وزروعٍ ومَقام كريم، ونَعْمةٍ كانوا فيها فاكهين، كذلك وأورثْناها قوماً آخرين﴾. صدق الله العظيم.

ــ صدق الله العظيم.. ثم ماذا يا سيِّدي؟

ــ ثم جمعتُ ما لا يُحصىٰ من الغنائم، وفيها ذخائر كسرى وكنوزه، وقسمتُها على المجاهدين، وأرسلتُ الخُمُسَ إلى أمير المؤمنين، وفيه سيف كسرى، ومِنْطَقَتُه، ونفائسه.

فقلتُ متابعاً:

ــ فلما رآها أمير المؤمنين عمر قال:

«إنَّ قوماً أدَّوا هذه لذوو أمانة».

فقال له عليٌّ كرَّمَ الله وجهه:

«لقد عَفَفْتَ فعفُّوا، ولو رَتَعْتَ لرتعوا».

وقالت صادقة:

ــ ما أجمل أن نجلس معك ساعةً، يا سيِّدي القائد المجاهد سعد، يزداد بها إيماننا، وتتوقَّد شعلة الحماسة في نفوسنا، لنتمكن من الوقوف في وجوه أعدائنا الذين تداعَوْا علينا من كلِّ حَدَبٍ وصَوْب، يريدون استئصالنا من جذورنا، حتى لا يبقى في بلادنا من يوحّد الله.

فنهض سعدٌ رضي الله عنه، وقال قبل أن يودّعنا:

ـ «كونوا مؤمنين بالله حقّ الإيمان يا أولادي، متوكّلين عليه حقّ التوكّل، وثقوا بنصر الله، ولا تخشَوْا تكالب الكفار عليكم، فكم من فئةٍ قليلةٍ غلبتْ فئةً كثيرةً بإذن الله».

• • •

